جذور مفهوم الاسلوب عند العرب القدامى

- فكلمة أسلوب قديمة في اللغة العربية وقد وردت في مصنفاتهم اللغوية والمعجمية.

نجدها في (لسان العرب) ما يأتي: "ويقال للسطر من النخيل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب قال: والأسلوب الطريق والوجه والمذهب يقال أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه والأسلوب بالضم الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه، وإن أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبرًا"([[1]](#footnote-1)) متجبرا.

أما في (أساس البلاغة) فقد وردت كلمة أسلوب (Style) بما يأتي: "... سلكت أسلوب فلان: طريقته وكلامه على أساليب حسنة... ويقال للمتكبر أنفه في أسلوب إذا لم يلتفت يمنة ولا يسرة..."(**[[2]](#footnote-2)**)، وتظهر كلمة أسلوب من خلال لسان العرب، وأساس البلاغة أن صلتها ضعيفة بأصل مادتها (سلب) لأنها تدل على الطريقة أو الفن أو المذهب، أي أنها لا تطلق على شيء بسمة محددة.

ليس لهذا الجذر اللساني في اللغة العربية أي صلة بالجذر اللساني لكلمة (Style) في اللغة الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية حيث أن كلمة (Style) في اللغة الإنجليزية تشير إلى (مرقم الشمع) وهي أداة الكتابة على ألواح الشمع، وقد اشتقت من الشكل (Stylus) إبرة الطبع (الحفر) واتخذت في اللغة اللاتينية الكلاسيكية المعـنى العام نفسـه"(**[[3]](#footnote-3)**)، أمـا في اللغة الفرنسيـة فكلمـة أسلـوب كانت (La Stylistique) ويسمى الباحث في الأسلوب بـ (Stylistician) وكلمة (Style) تعني: طريقة الكلام، وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Style) بمعنى عود من الصلب كان يستخدم في الكتابة، ثم أخذت تطلق على طريقة التعبير عن الكاتب"(**[[4]](#footnote-4)**)، وورود كلمة أسلوب في قاموس (le petit robert)، بمعنى (الدراسة العلمية للأسلوب) (**[[5]](#footnote-5)**).

"كلمة (Style) تظهر لصيقة بالمفهوم العام للثقافة الغربية ما دامت تشير إلى أداة الكتابة، وتعتبر أكثر تلاؤما من ناحية الجذر اللساني مع المجال الذي عنيت به وتشكل مفهومها فيه (مجال الكتابة أو الكلام) من كلمة أسلوب في اللغة العربية، فكلمة أسلوب غير لصيقة بأصل مادتها (سلب) على الرغم من أنها تدل على سمة معينة يتضمنها شيء ما"(**[[6]](#footnote-6)**).

**- الأسلوب في الموروث النقدي البلاغي:**

استطاع النقد العربي القديم أن يسوغ الأشكال الأدبية بمختلف القوانين والأطر النقدية الصارمة التي يعتبر الخروج عنها خروجا على المتعارف عليه، ولذلك لم يكن للأسلوب الحضور المستقل الذي تظهر فيه شخصية المبدع، إلا أن هذا الواقع لم يخل من بعض الملامح في عالم البلاغة القديمة التي أخذت الأسلوب بعين الاعتبار، وإن كانت محدودة التناول للأسلوب حيث إن المفهوم الأسلوبي لم يكن قد نضج، إلا أننا نجد نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني التي ظهر فيها تشابه بين المنهج الأسلوبي التي صيغت بها النظرية والنظريات الأسلوبية الحديثة، وقد "وجدت لفظة الأسلوب مجالاً طيبا في الدراسات القديمة، خاصة في مباحث الإعجاز القرآني التي استدعت بالضرورة ممن تعرضوا له بالدراسة أن يتفهموا مدلول الكلمة عند بحثهم المقارن بين أسلوب القرآن وغيره من أساليب العرب متخذين ذلك وسيلتهم لإثبات الإعجاز، وتفاوت هذا المفهوم ضيقا واتساعًا من باحث لآخر"(**[[7]](#footnote-7)**)، وقد ظهرت ملامح المنهج الأسلوبي في كتاب (تأويل مشكل القرآن) (لابن قتيبة) الذي ربط فيه بين الأسلوب وطرق أداء المعنى؛ حيث يرى تعدد الأساليب أساسه تعدد المواقف واختلافها وطبيعة الموضوع.

وهو يحاول أن يربط بين الأسلوب والنص الأدبي فيقول: "فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما من نكاح أو حمالة، أو تحضيض، أو صلاح، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من واد واحد بل يتفنن فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويُخفى بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء ويُكنِّى عنه، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وكثرة الحشد وجلالة المقام"(**[[8]](#footnote-8)**)،

**عبد القاهر الجرجاني** فقد نظر إلى قضية مهمة المتمثلة في الفرق بين مستويات الكلام البشري والإلهي المعجز، ومن خلال التفرقة بين اللغة والكلام، يأخذ الجرجاني طريقه في تأسيس (نظرية النظم) التي يفرق على أساسها بين الكلام وآخر، ومنه فإننا نجد عبد القاهر الجرجاني "على وعي تام بالفارق بين (اللغة) و(الكلام)، وفي تفرقته بين (الكفاءة) و(الأداء)، وإن قوانين النحو ومعاني الألفاظ تمثل عند عبد القاهر الجرجاني (النظام) القار في وعي الجماعة الذي تقوم اللغة على أساسه بوظيفتها الاتصالية، أما الكلام فهو التحقق الفعلي لهذه القوانين في حدث كلامي بعينه"(**[[9]](#footnote-9)**).

فهو يرى أن الفارق بين مستوى كلام ومستوى آخر يعود إلى المقدرة الفردية الخاصة بالمتكلم في تناوله للغة وتشكيلها، أما قوانين النحو فهي معيارية تختص بالخطأ والصواب، وإذا كان قد تميز النقد الأدبي القديم بالنظرة الجزئية التي اقتصرت فيها المعالجة على البيت الواحد في القصيدة، فإنه قد ظهرت النظرة الشمولية في معالجة النص عند الكثير من النقاد والبلاغيين من خلال أعمالهم ومؤلفاتهم النقدية، وتظهر النظرة الشمولية للنص عند عبد القاهر الجرجاني، والتي تمكن القارئ من الوقوف على جمالية النص: "فهو لا يستطيع أن يحكم على المزية فيه من قراءة البيت أو الأبيات الأولى، وإنما يقتضيه هذا النظر والانتظار حتى يقرأ بقية الأبيات وقد لا يستطيع أن يقف على أسرار النص ما لم يستفرغ جهده في تأمل القطعة الأدبية كاملة، وبعد ذلك يستطيع أن يتبن المزايا التي جعلته يقف على ما فيه من براعة النقش أو جودة التصوير والتعبير"(**[[10]](#footnote-10)**).

**حازم القرطاجني** اختلف في نظرته للنص عن باقي البلاغيين والتي نظر فيها إلى النص نظرة أكثر شمولية، ذلك أن للقصيدة مطلع ونهاية تنتهي بها وقد تحمل معان أرادها الشاعر، فحازم القرطاجني هو أول من قسم القصيدة العربية إلى فصول، وأول من أدرك الصلة الرابطة بين مطلع القصيدة وما سماه بالمقطع وهو آخرها الذي يحمل في ثناياه الانطباع الأخير والنهائي عن القصيدة، وكأنه "أدرك ببديهته صلة ما بين خاتمة النص والتدرج الداخلي للمعاني، فلا يجور – في رأيه - أن تأتي هذه الخاتمة بانطباع لم يتولد عن مجمل الانطباعات الخاصة بفحوى القصيدة"(**[[11]](#footnote-11)**)، وبهذا نجد أن حازم القرطاجني قد اهتم بشعور القارئ، فلا يجدر أن يفاجأ القارئ بنظرة الشاعر غير المتوازنة في تشكيله للنص.

**ابن رشيق** كانت له معالجات أسلوبية، ذلك أن مفهوم الأسلوب عنده يهتم بالصياغة اللفظية، وما يتوفر فيها من ترابط أجزاء الكلام وسهولة المخرج وحلاوة النطق به ,يقول: قال أبو عثمان الجاحظ "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدًا، وسُبك سبكا واحدًا، وهو يجري على اللسان كما يجري الدهان، وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه، وخف مَحمله، وقرب فهمه، وعُذب النطق به، وحلى في فهم سامعه، فإذا كان متنافرًا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجتّه المسامع فلم يستقر فيها منه شيء"(**[[12]](#footnote-12)**).

**ابن خلدون** اتخذ الأسلوب عنده شكل الظاهرة الاجتماعية الموحدة التي تميز مجتمع من المجتمعات، ويمكننا معرفة العوامل التي ساهمت في تميز أفراد مجتمع ما عن سواهم من خلال دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد مجتمع هذه الظاهرة، وفي هذا يقول ابن خلدون: "وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه، وتنظيم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية اسمية أو فعلية، متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي، في مكان كل كلمة من الأخرى، يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب، من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها، فإن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة، كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدًا... وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء، إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب بجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب"(**[[13]](#footnote-13)**).

1. - ابن منظور: لسان العرب مادة سلب ، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ، ص 549. [↑](#footnote-ref-1)
2. - الزمخشري جار الله: أساس البلاغة مادة سلب ، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ، ص 111. [↑](#footnote-ref-2)
3. - حسن ناظـم: البنى الأسلوبية دراسـة في أنشودة المطر للسياب، المركز الثقافي العـربي، دار البيضاء، ط1،2002، ص15. [↑](#footnote-ref-3)
4. - ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط2، 1994، ص 175. [↑](#footnote-ref-4)
5. - Jean Dubois et autres, déctionnaire de linguistique et larousse, paris, 2005, p448. [↑](#footnote-ref-5)
6. - ينظر: حسن ناظم: البني الأسلوبية، ص 15. [↑](#footnote-ref-6)
7. - ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مرجع سابق، ص 185. [↑](#footnote-ref-7)
8. - ابن قتيبـة، عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، طبعة دار إحيـاء الكتب العربية، القاهرة، 1954، ص 10، 11. [↑](#footnote-ref-8)
9. - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة الفصول العدد الخاص بالأسلوبية، 1984، ص 13. [↑](#footnote-ref-9)
10. - خليل إبراهيم: الأسلوبية ونظرية النص، الطبعة دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998، ص 55. [↑](#footnote-ref-10)
11. - المرجع السابق، ص 55. [↑](#footnote-ref-11)
12. - القيراوني، ابن رشيق العمدة: صناعة الشعر ونقده، ج1، تحقيق وتصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلي، طبعة مطبعة السعادة، مصر،

    ط1، 1908، ص 171، 172. [↑](#footnote-ref-12)
13. - ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد: مقدمة ابن خلدون، اعتناء ودراسة أحمد الزغبي، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،

    لبنان، د. ت، ص 650. [↑](#footnote-ref-13)